ريحانة شوقى على قبر حافظ

قَدْ كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ تَقُولَ رِثائِي ... يا مُنْصِفَ المَوْتَى مِنَ الأَحْياءِ
لَكِنْ سَبَقْتَ ، وَكُلُّ طُولِ سَلامَةٍ ... قَدَرٌ وَكُلُّ مَنِيَّةٍ بِقَضاءِ
الحَقُّ نادَى فاسْتَجَبْتَ وَلَمْ تَزَلْ ... بِالحَقِّ تَحْفِلُ عِنْدَ كُلِّ نِداءِ
وَأَتَيْتَ صَحْرَاءَ الإمامِ[1] تَذوبُ مِنْ ... طُولِ الحَنِينِ لِساكِنِ الصَّحْرَاءِ
فَلَقِيتَ فى الدَّارِ الإمامَ[2] مُحَمَّداً ... فى زُمْرَةِ الأَبْرَارِ وَالحُنَفَاءِ
أَثَرُ النَّعِيمِ عَلى كَرِيمِ جَبِينِهِ ... وَمَرَاشِدُ التَّفْسِيرِ وَالإِفْتَاءِ
فَشَكَوْتُمَا الشَّوْقَ القَدِيمَ وَذُقْتُما ... طِيبَ التَّدانِى بَعْدَ طُولِ تَنائِ
إِنْ كَانَتِ الأُولَى مَنَازِلَ فُرْقَةٍ ... فالسَّمْحَةُ الأُخْرَى دِيارُ لِقَاءِ
وَوَدِدْتُ لَوْ أَنِّى فِدَاكَ مِنَ الرَّدَى ... وَالكاذِبُونَ المُرْجِفُونَ فِدَائى
النَّاطِقُونَ عَنِ الضَّغِينَةِ والهَوَى ... وَالمُوغِرُو المَوْتَى عَلى الأَحْيَاءِ
مِنْ كُلِّ هَدَّامٍ وَيَبْنِى مَجْدَهُ ... بِكَرَائِمِ الأَنْقَاضِ وَالأَشْلاَءِ
ما حَطَّمُوكَ وَإِنَّما بِكَ حُطِّمُوا ... مَنْ ذَا يُحَطِّمُ رَفْرَفَ الجَوْزَاءِ ؟
أُنْظُرْ ! فَأَنْتَ كَأَمْسِ شَأْنُكَ باذِخٌ ... فى الشَّرْقِ ، وَاسْمُكَ أَرْفَعُ الأَسْماءِ
بِالأَمْسِ قَدْ حَلَّيْتَنِى بِقَصِيدَةٍ ... غَرَّاءَ تُحْفَظُ كاليَدِ البَيْضاءِ
غِيظَ الحَسُودُ لَهَا وَقُمْتُ بِشُكْرِها ... وَكَمَا عَلِمْتَ مَوَدَّتِى وَوَفائى
فى مَحْفِلٍ بَشَّرْتُ آمالِى بِهِ ... لَمَّا رَفَعْتَ إلى السَّماءِ لِوَائى

* * *

(١) المراد بالامام فى البيت الامام الشافعى. (٢) يشير الشاعر الى الاستاذ الامام محمد عبده .

يا مائِحَ السُّودانِ شَرْخَ شبابِهِ ... وَوَلِيَّهُ فى السِّلْمِ والهَيْجاءِ
لمَّا نَزَلْتَ على خَمائِلِهِ ثَوَى ... نَبْعُ البَيانِ وَرَاءَ نَبْعِ الماءِ
قَلَدْتَهُ السَّيْفَ الحُسامَ وَزِدْتَهُ ... قَلَماً كَصَدْرِ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ
قَلَمٌ جَرَى الحِقَبَ الطِّوَالَ فَما جَرَى ... يَوْماً بِفاحِشَةٍ وَلاَ بِهِجاءِ
يَكْسُو بِمِدْحَتِهِ الكِرَامَ جَلالَةً ... وَيُشَيِّعُ المَوْتَى بِحُسْنِ ثَنَاءِ

* * *

إسْكَنْدَرِيَّةُ يا عَرُوسَ الْمَاءِ ... وَخَمِيلَةَ الْحُكَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ
نَشَأَتْ بِشَاطِئِكِ الْفُنُونُ جَمِيلَةً ... وَتَرَعْرَعَتْ بِسَمَائِكِ الزَّهْرَاءِ
جَاءَتْكِ كالطَّيْرِ الْكَرِيمِ غَرَائِباً ... فَجَمَعْتِهَا كالرَّبْوَةِ الْغَنَّاءِ
قَدْ جَمَّلُوكِ فَصِرْتِ زِنْبَقَةَ الثَّرَى ... لِلْوَافِدِينَ وَدُرَّةَ الدَّأْمَاءِ
غَرَسُوا رُبَاكِ عَلَى خَمَائِلِ بَابِلٍ ... وَبَنَوا قُصُورَكِ فى سَنَا الْحَمْرَاءِ
وَاسْتَحْدَثُوا طُرُقاً مُنَوَّرَةَ الهدى ... كَسَبِيلِ عِيسَى فى فِجَاجِ الْمَاءِ
تُغْذَى كَأَمْسِ مِنَ الثَّقافَةِ زِينَةً ... وَتَجَمَّلى بِشَبَابِكِ النُّجَبَاءِ
وَتَقَلَّدِى لُغَةَ الْكِتَابِ فإنها ... حَجَرُ الْبِنَاءِ وَعُدَّةُ الإنْشَاءِ
بَنَتِ الْحَضَارَةَ مَرَّتَيْنِ وَمَهَّدَتْ ... لِلْمُلْكِ فى بَغْدَادَ وَالْفَيْحَاءِ (١)
وَسَمَتْ بِقُرْطُبَةٍ وَمِصْرَ فَحَلَّتَا ... بَيْنَ الْمَمَالِكِ ذِرْوَةَ الْعَلْيَاءِ
مَاذا حَشَدْتِ مِنَ الدُّمُوعِ «لِحَافِظٍ» ... وَذَخَرْتِ مِنْ حُزْنٍ لَه وَبُكَاءِ ؟
وَوَجَدْتِ مِنْ وَقْعِ الْبَلاءِ بفَقْدِهِ ... إنَّ الْبَلاَءَ مَصَارِعُ الْعُظَمَاءِ
اللهُ يَشْهَدُ قَدْ وَفَيْتِ سَخِيَّةً ... بِالدَّمْعِ غَيْرَ بَخِيلَةِ الخُطَبَاءِ
وَأَخَذْتِ قِسْطاً مِنْ مَنَاحَةِ ماجِدٍ ... جَمِّ الْمَآثِرِ طَيِّبِ الأَنْبَاءِ
هَتَفَ الرُّوَاةُ الْحَاضِرُونَ بِشِعْرِهِ ... وَحَدَا بِهِ الْبَادُونَ فى الْبَيْدَاءِ
لُبْنَانُ يَبْكِيهِ وَتَبْكِي الضَّادُ مِنْ ... حَلَبٍ إلى الْفَيْحَا إلى صَنْعَاءِ
عَرَبُ الْوَفَاءِ وَفَوْا بِذِمَّةِ شَاعِرٍ ... بانِى الصُّفُوفِ مُؤَلِّفِ الأَجْزَاءِ

(١) الفيحاء : دمشق الشام .

* * *

يا حَافِظَ الفُصْحَى وَحَارِسَ مَجْدِها ... وَإمامَ مَنْ تَجَلَتْ مِنَ البُلَغاءِ
مازِلْتَ تَهْتِفُ بالقَدِيمِ وَفَضْلِهِ ... حَتَّى حَمَيْتَ أَمانَةَ القُدَماءِ
جَدَّدْتَ أُسْلُوبَ (الوَلِيدِ) وَلَفْظَهُ ... وَأَتَيْتَ لِلدُّنْيَا بِسِحْرِ (الطَّائِى)
وَجَرَيْتَ فى طَلَبِ الجَدِيدِ إلى المَدَى ... حَتَّى اقْتَرَنْتَ بِصَاحِبِ البُؤَسَاءِ(١)
ماذَا وَرَاءَ المَوْتِ مِنْ سَلْوَى وَمِنْ ... دَعَةٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَمِنْ إغْضاءِ؟
إشْرَحْ حَقَائِقَ ما رَأَيْتَ وَلَمْ تَزَلْ ... أَهْلاً لِشَرْحِ حَقَائِقِ الأَشْياءِ
رُتَبُ الشَّجَاعَةِ فى الرِّجالِ جَلائِلٌ ... وَأَجَلُّهُنَّ شَجَاعَةُ الآرَاءِ
كَمْ ضِقْتَ ذَرْعاً بالحَياةِ وَكَيْدِها ... وَهَتَفْتَ بالشَّكْوَى مِنَ الضَّرَّاءِ
فَهَلُمَّ فَارِقْ يَأْسَ نَفْسِكَ سَاعَةً ... وَاطْلُعْ عَلى الوَادِى شُعَاعَ رَجَاءِ
وَأَشِرْ إلَى الدُّنْيَا بِوَجْهٍ ضَاحِكٍ ... خُلِقَتْ أَسِرَّتُهُ مِنَ السَّرَّاءِ
يا طَالَمَا مَلأَ النَّدِيَّ بَشَاشَةً ... وَهَدَى إلَيْكَ حَوَائِجَ الفُقَرَاءِ
اليَوْمَ هادَنْتَ الحَوَادِثَ فاطَّرِحْ ... عِبْءَ السِّنِينَ وَأَلْقِ عِبْءَ الدَّاءِ
خَلَّفْتَ فى الدُّنْيَا بَيَاناً خَالِداً ... وَتَرَكْتَ أَجْيَالاً مِنَ الأَبْنَاءِ
وَعَداً سَيَذْكُرُكَ الزَّمَانُ وَلَمْ يَزَلْ ... لِلدَّهْرِ إنْصَافٌ وَحُسْنُ جَزَاءِ

احمد شوقى

* * *

أُقيمت لفقيد الادب المرحوم محمد حافظ ابراهيم بك يوم أول سبتمبر حفلة تأبين كبرى فى مدينة الاسكندرية نظَّمتها (جماعة الادب المصرى) واشتركت فيها (جمعية أبولو) و (رابطة الأدب الجديد) . وقد تُليَتْ فيها قصيدة شوقى بك المتقدمة فعنَّ لنا أن نكتب كلمةً تعليقاً على قصيدة شوقى بك ومُلابساتها التى سوف يتساءل عنها أدباء الغد .

كنّا فى الاسكندرية لمَّا فُجِعنا بوفاة صديقنا حافظ ، وكنّا اثر ذلك فى زيارة شوقى بك فوجدناه متأثراً غاية التأثر لوفاة الفقيد ، ولم تكن صحة شوقى بك على ما يرام حينئذ فقدَّمنا اليه عزاءنا وقابلناه بعد يومين فسألناه إذا كانت مرثيته

(١) يشير الى الشاعر الفرنسى فيكتور هوجو .

المرتقبة لحافظ ستنشر نشراً شعبياً أو فى الامكان اختصاص العدد الأول من (أبولو) بها . فقال إنه سيعدُّها لذكرى الأربعين ، وربما كان من الخير أن تكون إذاعتُها عامةً . فاكتفينا بهذا الرد منه وقدَّرنا أن الرجل لا يمكن أن يقصر نحو ذكرى زميله العظيم، وقد كان حينئذ شوقى بك معتلَّ الضحة ويستحق اكيداً الاشفاق عليه . نقول هـذا لمناسبة النقد الشديد الذى وُجِّـه اليه فى بعض الصحف لعدم مبادرته الى رثاء حافظ . والواقع أنّ هذا النقد مبنى على اساءة الظن بالرجل ، وليس مبنياً على معرفة حقيقة ظروفه النفسية والصحية فى هذه الآونة . وعندنا أن سبب هذا الظن السيء يرجع فى النهاية الى بطانة شوقى بك فى سالف السنين ، فمثله كأمراء الشرق يُحمد ويُلام بقدر تصرفات بطانته ، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر ، ومن حسن حظ الأدب أن يكون سكرتير شـوقى بك فى الوقت الحاضر رجـلاً مهذباً محبوباً هو احمد افندى عبد الوهاب الذى يخلق بحسن شمائله جواً من المحبة وحسن التفاهم حول شوقى بك .

قدَّمنا بهذه السطور انصافاً للحقيقة والتاريخ . وبعد ، فنعتبر من حسن التوفيق أن وُجِّهتْ الى شوقى بك تلك الحملة السالفة الذكر كيفما كانت أسبابها لأنها ألهبته سخطاً وجعلتْ أسلوبه قوياً عنيفاً منـذ بدايته بهذا البيت الطبيعى الذى أوحتْ به ظروفه :

قد كنتُ أُوثر أن تقول رثائى يا مُنصفَ الموتى من الاحياء

وما كان يملك شوقى بك أن يقول سواه فى فـورة عواطفه . فـكان ميزان قصيدته الخالدة بمعانيها وانسانيتها وبصياغتها وموسيقاها الحزينة .

وفى رأينا أن أوْلَى الشعراء برثاء حافظ وأقدرهم على ذلك اثنان شوقى ومطران ، فان لهما به من العلاقات الشخصية المديدة مايجعل لشعرهما روعةً خاصةً لن يبلغها أى شاعر آخر يقدِّر الفقيد تقديراً ثقافياً فقط .

وأنت إذْ تقرأ قصيدة شوقى تشعر على الفور بأن قوتها ليست مستمدةً من شعوره الوجدانى وإحساسه بتطلع العالم العربى لوفائه فقط ، بل أن دفاعه عن نفسه وثورته لكرامته تشتركان فى املائها ، وهذا ملحوظ فى القسم الاول من القصيدة بصفة خاصة .

وقد وعتْ المرثيةُ الى جانب هذا عَرْضَ حياةِ الفقيد ونوازعه بأسلوبٍ شائق

جاء آيةً فى السهولة والموسيقية الأخّاذة حتى أن المعانى القديمة التى تلاقيك لا تقل فى جاذبيتها الجديدة عن أخواتها المستحدثة. ومما طبعَ القصيدةَ بطابعٍ فنىٍ تنقُّل الشاعر من الحسرة الى الوصف الى الخيال الرائع الى الحكمة البالغة فى تسلسلٍ وانسجامٍ لا أثر للتفكك فيه ، وإنما فيه فورة تكاد تكون متواصلةً ، ووراءه ثقةٌ بالنفس تجعله يختار من التعابير ما يسترعى انتباهك واهتمامك مثل خطابه الموّجه الى الاسكندرية وفيه من جميل التخيُّل وقوة التوجيه ما فيه إذ يقول (غير عابئ بأحكام العروض فى مستهلّ هذا الشعر الموسيقى الجميل) :

اسكندريةُ ياعَرُوسَ الماءِ وخميلةَ الحكماءِ والشُّعراءِ
نشأتْ بشاطئكِ الفنونُ جميلةً وترعرعتْ بسمائكِ الزهراء
جاءتك كالطيرِ الكريم غرائباً فجمعتِها كالربوةِ الغنّاءِ
قد جَمَّلوكِ فصرتِ زِنبَقَةَ الترى للوافدين ودُرَّةَ الدأماءِ
غَرَسُوا رُباكِ على خمائل بابلٍ وبَنوا قُصورَكِ فى سَنا الحمراءِ
واستحدثوا طُرُقاً مُنَوَّرةَ الهُدى كسبيل عيسى فى فجاج الماءِ
ماذا حشدتِ من الدموع لحافظٍ وذخرتِ من حُزْنٍ له وبُكاءِ؟

والملحوظ فى هذه الابيات البديعة تأثُّر شوقى ببيئته الفلسفية وقت نظمها فقد كان يسمع تكراراً الامداح الشعرية الغزلية فى مدينة الاسكندرية وفنونها القديمة وفلسفتها من تَيْم الحكمة الدكتور على العنانى . وما دمنا قد أشرنا الى أقدر الشعراء على رثاء حافظ فلا نريد أن يفوتنا التنويه بالقصيدة الممتازة لشاعر العصرى على محمود طه المهندس المنشورة فى العدد الخاص بحافظ الذى أصدرته جريدة (السياسة) بتاريخ يوم الجمعة ٢ سبتمبر ، فقد تناولت هذه القصيدة انسانية حافظ وروحه الاجتماعية تناولاً بديعاً لم يُوفَّق اليه أىُّ شاعر آخر فى رأينا ، وجاءت متممةً لرثاء الراحل العظيم كما خلّدتْ لنا نموذجاً فنياً من شعر الرثاء العصرى .